عن الدين في القرن الحادي والعشرين

أ.د. البخاري حمانه،

قسم الفلسفة،

جامعة وهران.

Résumé

De la religion au XXIème Siècle

Face a ce que certains sociologues et philosophes européens contemporains désignent, en ces débuts du xxième siècle, sous le nom de "retour du religieux"dans le vieux continent ,et au réveil rigoriste du sentiment religieux dans le reste du monde, seule une nouvelle approche de la religion , en général,peut contribuer au rapprochement des hommes et à l'avènement d'un dialogue constructif entre leurs cultures et leurs civilisations.

لعل من أبرز المفاجئات التي حملتها نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، خاصة بالنسبة للبعض من المفكرين والباحثين في أوربا... الغربية منها والشرقية، على حد سواء، ولغيرهم من المفكرين والباحثين في بقية أنحاء العالم الأخرى، ومن ضمنها العالم العربي والإسلامي، هي ما أسماه البعض منهم "بالعودة المفاجئة للدين "(Le retour de la religion) خاصة ،والمقدس (le sacré) عامة ،إلى مجتمعات القارة العجوز ،وتصاعد الاتجاه نحو الدين ،خاصة لدى الشباب ،في غيرها من مناطق العالم الأخرى.. وفي مقدمتها العالم العربي والإسلامي.

فالنسب لأوروبا ،وللغرب عامة، فإن. "تلك العودة "للدين ،لا تتجلى فحسب ،في عودة أكثر من مجتمع أوربي ،خاصة مند تفكك الإتحاد السوفيتي ،وسقوط حائط برلين (1989)، إلى التمسك بهوياتهم الوطنية والدينية، بل أنها تتجلى كذلك فيما يعرف.. مند زمن.. بالعهد الجديد (New –Age).. وفي تزايد الحركات والجمعيات الدينية ،خاصة السرية منها ،التي تعج بها اليوم تلك المجتمعات ،وتضج من ممارستها المشبوهة والتي يختلط فيها غموض التعليم" بالعنف الهمجي ..خاصة ضد الأطفال.كما أن مثل تلك العودة المفاجئة للدين تتجلى كذلك في تلك الحمولة الدينية ،غير المعهودة ،التي تميز اليوم خطب الساسة الأوروبيين والغربيين،

الرسميين منهم وغير الرسميين، وهدا ابتداء من الرئيس الأمريكي جورج بوش وطروحاته حول محور الشر، وحول"حرب الإسلام وإرهابه ضد المسيحية "،وتحذيرات الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي (Nikolas Sarkozy) حول "اللايكية المهددة. (La laicité menacée) "من طرف الإسلام بصورة خاصة "وانتهاء بالعديد من الصحف الأمريكية وبنصائحها للعديد من المتقدمين لخلافة بوش بإعطاء الأولوية للمعتقد الديني وليس للمعتقد السياسي إدا ما أرادوا.....الظفر بتلك الخلافة.

هكذا تكشف أوروبا اليوم ،لأولئك المفكرين والباحثين ،ودلك من أمثال دوركايم (E. Durkheim) وكومت (A.Comte). وتونيز (Tonnies) ووبير (Weber)...الخ ،الدين أكدوا أمام انبهارهم بالثورات المختلفة ،خاصة العلمية والصناعية ،التي كانت أوروبا قد بدأتها منذ القرنيين السابع والثامن عشر، أن القارة العجوز قد تحررت نهائيا من الدين ،الدي كان بالنسبة لها أشبه بالمرض العصابي (une maladie névrotique) وبالإستيلاب (L'aliénation) وتحولت بالتالي إلي النموذج الأوحد والوحيد للتطور .وللتقدم وللحداثة (la modernité) ...أن الوعي الديني متمثلا عامة في كل أشكال المقدس ، لم يتوار بل أنه يعسكر،ومن خلال الشرائح الاجتماعية المقصاة من إيجابيات تلك الحداثة ..بل ومن خلال تشبث العديد من العلماء فيها بالدين، على ضفاف حداثتها تلك.

كما تكشف أوربا، كذلك وبالتالي،لأولئك الباحثين ،وهي التي قالوا أنها قد استبدلت الإنسان بالله ،بعد نعيه،والتقنية بالدين ،الذي تأكل و العلم بالخرافة أن الذي يتآكل اليوم ..هي الحداثة ..وليس الدين ...وإن مطلب المعنى (La quête du sens)،..معنى الحياة الإنسانية ومسارها. ومصيرها لم يكن في أي يوم من الأيام بهده القوة والإلحاح والشمولية مثلما هو اليوم .

من هنا عودة أوليك المفكرين والباحثين إلى الإقرار اليوم ،بأن الوعي الديني أيا كان ،ليس، وكما دهب من سبقوهم ،صورة من صور الماضي المقيت أو عائقا من عوائق التقدم ،بل إنه مكون أساسي من المكونات الاجتماعية والسياسية

والاقتصادية والثقافية ،وأن دوره في إضفاء مثل دالك المعنى المنشود على الحياة الإنسانية لا يقل عن الدور المادي للأيكية وللحداثة.

ومن هنا كذلك تلك الانتقادات المريرة للتقنية (روسكان (J Ruskin) اللول (J Ellul) أنشتاين (. A.Einstein) هيدقر (M.Heidegger) ماركيوز (H.Marcuse) وغيرهم ومطالبتهم ،منذ القرن الماضي بضرورة توظيف الدين من جديد لتحقيق تصالح أوروبا مع علومها وتقنياتها ..ولدرء الويلات التي سببتها لها بالأمس (الحربين العالميين)،ولتلك الأخرى التي تتهددها بها اليوم ودلك من خلالها ما يعرف بالثورة الرقمية، (la révoluion numérique) ممثلة في بصورة خاصة في الثورة البيولوجية وفي محاولاتها الإستنساخية.. (le clonage)، وفي الاحتباس الحراري ... الخ ودلك نتيجة للجهل بالدين وبإبعاد الإنسانية .

ومن هنا أخيرا وليس أخرا ،عمل أولئك المفكرين والباحثين على إعادة التفاعل بين الحداثة وبين الدين ودلك من خلال لجوئهم إلى المناهج الظواهرية ..والتأويلية واللسانية والسيميائية ،لمحاولة فهم أفضل للعقائد الدينية ودلك انطلاقا من وجهة نظر المعتنقين لها ،ممثلين بالنسبة لأوروبا بصورة خاصة، في المهاجرين (les immigrés) عامة ،وفي المهاجرين المسلمين بصورة خاصة الذين يشكلون اليوم مكونا ديموغرافيا. .واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وسياسيا،من مكونات مجتمعاتها.. ولانتظامهم فيها... و للتعايش وللحوار الإيجابي والسلمي بالتالي معهم ومع ثقافتهم وحضارتهم وصولا إلى مشاركتهم، إلى جانب ما يسمي اليوم باللائكية الإيجابية،(La laicité positive) في صنع مثل دلك المعنى المشترك للحياة.

وإذا كان دلك هو ،وبصورة مختصرة, واقع الدين ..في أوروبا ،وفي الغرب عامة ،فإن واقعه وتمظهراته في غيرها من مناطق العالم الأخرى ،ومن ضمنها العالم العربي الإسلامي ،وهو الذي يهمنا أكثر هنا ،لا يقل غرابة عن تلك العودة المفاجئة له في القارة العجوز .

لقد شهد العالم العربي والإسلامي ،(وهو الذي لم يتخل في أي يوم من أيام عن الدين ،"والدي لا يحصل له ،وكما لاحظ العلامة ابن خلدون، ملك إلا بصبغة

دينية ،من نبوة أو ولاية ،أو أثر عظيم ")، منذ السبعينات من القرن الماضي ،تصاعدا غير معهود للدين ..وهو التصاعد الذي تمثل بصورة خاصة فيما سمي بالصحوة الإسلامية.

وقد جاءت هذه الصحوة ،(التي تغذت أساسا من بعض التيارات الفكرية الدينية السائدة في بعض البلدان العربية والإسلامية (المملكة العربية السعودية ،الهند ،باكستان ،مصر .....الخ) بعد التعثر الذي عرفته الايدولوجيا القومية العربية إثر الهزيمة العسكرية العربية أمام إسرائيل (جوان 1967) ..والفشل الذي عرفته كل التجارب التنموية الاشتراكية في البلدان العربية ،وهذا ابتداء من مصر ..والجزائر وانتهاء بكل من اليمن الجنوبية (سابقا)بل وتونس .

وتمثلت تلك الصحوة خاصة في الإقبال غير المعهود للشباب العربي والإسلامي على الدين ،وفي تشبثه المفرط بجزئياته.. وفي مغالاته في التحريم ،كرد فعل على ما أعتبره انحلالا شاملا أصاب كل مجالات الحياة العربية والإسلامية.. التي لم يلبث أن أعلن أنه لا إمكانية لا إعادة إصلاحها إلا من خلال التطبيق الفوري للشريعة الإسلامية وقيام دولة إسلامية قادرة وحدها على استعادة مجد الإسلام والمسلمين.

وإذا كانت هذه الصحوة ،التي نلاحظ أنها ليست الأولى ،ولن تكون بالتأكيد الأخيرة في تاريخ العالم العربي الإسلامي ،قد تميزت، لا بطابعها الانفجاري والشمولي فحسب ،بل وبأشكال من التطرق ومن العنف بل ومن الإرهاب الهمجي ضد المدنيين الأبرياء ، وهي الأشكال التي كان يعتقد أن العالم العربي والإسلامي قد تجاوزها منذ قرون وقرون ،فإن ذلك راجع ،فيما نعتقد إلى استبداد وفساد وإرهاب وعشائرية معظم النظم السياسية العربية والإسلامية ..والى رفضها الكلي لأي شكل من أشكال الديمقراطية الحقيقية وقمعها لكل رأي مخالف .

كما أن مثل ذلك التطرف وذلك العنف وذلك الإرهاب الذي ميز أطرافا كثيرة من أطراف تلك الصحوة راجع كذلك إلى تصاعد الحملات العسكرية والسياسية والإعلامية والاقتصادية (العولمة la mondialisation) الغربية ضد ما

يسمونه بالتعصب وبالإرهاب الإسلاميين اللذان يهددان الحضارة الغربية وقيمها الإنسانية..كما زعموا...

من هنا لجوء ذلك الشباب، الرافض للديمقراطية الغربية ،والذي اتخذ من المؤسسات التعليمية والتكنولوجية، ومن الشرائح الاجتماعية المقصاة والمحرومة أماكن ووسائل لتمرير أطروحاته تلك، وهو الذي أعلن على أنه الممثل الأوحد للفرقة الناجية، إلى انتظام بالتالي في مجموعات سرية جهادية وقتالية ضد نظم الحكم العربية والإسلامية و"ما تمثله من كفر وطاغوت بل وضد كل متعاون معها أو خانع أمام تصرفاتها ".

ومن هنا كذلك تلك المآسي والمجازر الدموية التي كانت الجماهير العربية والإسلامية ،ولا تزال، أولى ضحاياها والتي تعصف اليوم بأكثر من بلد عربي وإسلامي عصفا .

وإذا كنا أول من يدين مثل هده الممارسات الهمجية والإرهابية المخالفة نصا وروحا للإسلام ولتعاليمه لتلك الحركات،التي نلاحظ هنا أنها لم تولد عبثا بل ولدتها ظروف سياسية واقتصادية عربية وإسلامية متردية ،فإننا أول من يؤكد كذلك أن تلك الصحوة لم تخلف فقط وكما يؤكد البعض، سوى مثل هده الحركات الغارقة في العنف والإرهاب والرافضة لكل شكل من أشكال التعايش السلمي والديمقراطي مع نظم الحكم السياسية في العالم العربي والإسلامي ،بل أنها خلفت كذلك، وكما سنرى، حركات أكثر اعتدالا وواقعية .

من هنا قصور البعض من الدراسات، خاصة العربية والإسلامية منها، التي تناولت الحركات الإسلامية المعاصرة ،خاصة في مصر والجزائر ،وهو القصور الدي تجلى من بين ماتجلى في تركيزها على الجزئيات وإهمالها للكليات في هده الحركات وإعتمادها أسلوب الحشد للمعلومات الجزئية ،بدلا من النقد للإتجهات العامة، والتجريح بدلا من التحليل، ولغة أجهزة الأمن بدلا من لغة العلم ومن هنا كذلك كان عجزها عن تقديم حلول واقعية وموضوعية لمثل دلك العنف ودلك الإرهاب ولاسبابهما الحقيقية.

نعود الى الصحوة والى تلك الحركات الإسلامية الأخرى،السلمية المتولدة عنها كدلك،لنقول أنها وبحكم وسطيتها ،التي تمثل روح الإسلام، وبحكم تعاونها العملي مع نظم الحكم السياسية العربية الإسلامية القائمة هي مؤهلة، إذا ما توفر لها الجو الديمقراطي الحقيقي،على إعادة التجديد المبدع والموضوعي للعلاقة التي تجب أن تحكم السياسي والديني وعلى إعادة استقطاب الشباب العربي والإسلامي نحوها من خلال عملها على التصالح الإيجابي بين النقل وبين العقل، بين كل المعطيات الإيجابية للماضي والتحديات المتعددة والمتجددة للحاضر، بين الاجتهاد والتجديد، بعيدا عن أي إفراط أو تفريط وتأكيدا لروح الإسلام ولصلاحيته لكل زمان ومكان.. ولجدارته وبالتالي بأن يكون حقا عقيدة المستقبل بالنسبة لكل أبناء الإنسانية .